الفصل الأول

مراحل عمر المرأة فى النادرة

أكثر النوادر تتعرض للمرأة الناضجة، ولكنها قلما تتعرض للمرأة فى مراحل عمرها السابقة؛ ولعل هذا يعود لكون المرأة الناضجة – خاصة الزوجة أو الأم – يمكن أن تكون لها مواقف مضحكة مع الأب أو الزوج أو الابن.

أما الطفلة أو الفتاة فالمواقف المضحكة التى يمكن أن تحدث معها فى إطار العائلة أو خارجها تبدو قليلة.

وكذلك فالمرأة الناضجة – بنماذجها المختلفة التى سنتحدث عنها فيما بعد – أقدر على إثارة الفكاهة؛ ولهذا – أيضًا – كثرت النوادر التى تتناولها، مقارنة بقلة النوادر التى جاء فيها الطفلة أو الفتاة.

وكذلك من الملاحظ أن الكثير من النوادر التى تتعرض للمرأة تذكر فيها المرأة، وهى غائبة بجسدها عن النادرة، ويتم الحديث عنها بضمير الغائب؛ ولعل هذا يشير إلى أن وضع المرأة – فى العصر العباسى بصفة خاصة – كان وضعًا مهمشًا، وقلما كانت تشارك فى فعاليات الحياة خارج إطار البيت.

وها نحن نذكر بعض النوادر التى تشير للمرأة فى مراحل عمرها المختلفة.

الطفلة الصغيرة

فقد جاء ذكر الرضيعة – أى الطفلة المولودة حديثًا – فى القليل من النوادر، وبالطبع يتم الحديث عنها بضمير الغائب، وتكون خارج إطار المشهد المعروض فى النادرة، كما نرى فى هذه النادرة عن أبى دلامة وحديثه عن مولودة رُزق بها.

"ودخل أبو دلامة[1] يومًا على المنصور[2] وبين إصبعيه خرقةٌ، فقال له: ما هذا يا أبا دلامة؟ فقال: ولدت لى البارحة صبية وقد قلت فيها:

فما ولدتك مريم أم عيسى ... ولم يكفلك لقمان الحكيمُ

ولكن قد ولدت لأم سوء ... يقوم بأمرها بعل لئيمُ

فضحك المنصور وقال: ما تريد؟ قال: ملء هذه الخرقة أستعين بها على تربيتها. فقال المنصور: املئوها دراهم، ففتحوها فإذا هى رداء رقيق كبير، فملئوه، فأخذ عشرة آلاف درهم.

وكان المنصور بخيلاً، وإنما كان أبو دلامة يستنزله بالملح لشدة بخله، فقد كان يتجاوز الغاية فى ذلك"[3].

---

(1) أبو دلامة هو زَنْدُ بن الجون، كان مولى لبنى أسد، وهو أسود البشرة، من الكوفة، وتاريخ ميلاده مجهول، ولكنه بالنظر لبعض أخباره يظن أنه قد ولد فى أواخر القرن الهجرى الأول، وقد أدرك بنى أمية، ولم يكن له فى أيامهم نباهة، ونبغ فى أيام العباسيين، وانقطع للخلفاء العباسيين الأوائل السفاح والمنصور والمهدى، وكان مضحكًا لهم، وسميرًا ومؤنسًا بنوادره وشعره الساخر، وكانت وفاته سنة 161هـ.

انظر عنه: ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. حققه: د. إحسان عباس. بيروت، دار صادر، 320/2، والذهبى: سير أعلام النبلاء. أشرف على تحقيق الكتاب وخرج أحاديثه: شعيب الأرنؤوط. وأشرف على تحقيق الجزء الثانى: على أبو زيد. بيروت، مؤسسة الرسالة، ط2، 1402هـ/1982م، 347/8، وابن العماد الحنبلى: شذرات الذهب فى أخبار من ذهب. بيروت، دار المسيرة، ط2، 1399هـ/1979م، 49/1، وياقوت الحموى: معجم الأدباء "إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب". تحقيق: د. إحسان عباس. بيروت، دار الغرب الإسلامى، ط1، 1993م، 1327/3.

(2) هو الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور.

(3) الحصرى القيروانى: جمع الجواهر فى الملح والنوادر. تحقيق: على محمد البجاوى. بيروت، دار الجيل، ط2، 1407هـ/1987م، ص102.

وكذلك تعرَّض القليل من النوادر للطفلة فى مراحل الطفولة المختلفة: المبكرة والمتوسطة والمتأخرة[1]، وهناك القليل من النوادر التى أشارت إلى الطفلة فى مرحلة محددة من هذه المراحل؛ لأنه لا توجد دلائل – فى الغالب – داخل النوادر التى بها طفلة تحدد بشكل قاطع فى أى مرحلة هى من مراحل الطفولة التى هى معروفة لنا الآن؛ وهذا يدل على أنه كان هناك إهمال للطفولة – فى ذلك العصر العباسى الذى شاعت فيه أكثر النوادر التى وصلتنا فى كتب الأخبار – وإهمال أخص بالطفلة، وأيضًا لم تكن مراحل الطفولة محدَّدة قديمًا بالشكل العلمى الذى هو معروف الآن.

---

(1) يرى كثير من الباحثين أن مراحل الطفولة هى كالآتى: مرحلة الطفولة المبكرة وتكون من سن 3 إلى 5 سنوات، وفيها يكون للطفل عالم محدود، وله خيال حاد فى إطار البيئة التى يعيش فيها. والمرحلة الثانية هى مرحلة الطفولة المتوسطة وهى من سن 6 إلى 8 سنوات، وهى مرحلة الخيال المنطلق، ويميل الطفل فيها إلى التمرد والتفرد، وينجذب فيها الطفل لقصص الجان والسحر والمغامرات، ويكون خيال الطفل فيها منطلقًا . والمرحلة الثالثة من مراحل الطفولة هى مرحلة الطفولة المتأخرة، وهى من سن 9 إلى 12 سنة، ويهتم الطفل فيها بالحقائق، وتثير، قصص البطولة والمغامرات، ومن الباحثين من يجعل مرحلة الطفولة المتأخرة تستمر إلى سن 15 سنة، وقرب نهاية هذه المرحلة يميل الطفل للمثالية والبحث عن المثال.
انظر حول مراحل الطفولة المراجع التالية: د. هادى نعمان الهيتى: ثقافة الأطفال. الكويت، سلسلة عالم المعرفة، العدد 113، رجب 1408هـ/ مارس 1988م، ص80- 88، ود. محمد حسن عبد الله: قصص الأطفال أصولها الفنية روادها. القاهرة، العربى للنشر والتوزيع، ص17- 22، ود. على الحديدى: الأدب وبناء الإنسان فى أدب الأطفال. القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، د.ت، ص187، ود. محمد عماد الدين إسماعيل: الأطفال مرآة المجتمع (النمو النفسى الاجتماعى للطفل فى سنواته التكوينية). الكويت، سلسلة عالم المعرفة، جمادى الآخرة، 1406هـ/ مارس 1986م، ص5.

ولم يظهر الاهتمام بالطفولة بشكل مؤثّر، إلا فى العصر الحديث مع ظهور القرن العشرين[1].

وها هى ذى نادرة تذكر فيها طفلة صغيرة – فى مرحلة من مراحل الطفولة لا يمكن لنا أن نجزم بتحديدها – ويأتى الحديث عن الطفلة بضمير الغائب، فهى ليست حاضرة فى المنظر الذى تعرضه النادرة، ولكن يتم الحديث عنها فى غيابها.

وقال لأبى العيناء[2] "صاعد[3] يومًا: ما الذى أخرك عنا، قال: بنيتى. قال: وكيف؟ قال: قالت: يا أبه، قد كنت تغدو من عندنا فتأتى بالخلعة السرية، والجائزة السنية، ثم أنت الآن تغدو مُسْدفًا، وترجع معتمًا، فإلى من؟

---

(1) مع الأخذ فى الاعتبار أن الإسلام حث على حسن رعاية الأطفال، وحسن تربيتهم، ووردت آيات قرآنية وأحاديث نبوية تؤيد ذلك.

ولكن ما نقصده هنا أنه لم تكن توجد مؤسسات ترعى الطفولة والأطفال إلا فى عصرنا الحديث فى القرن العشرين والقرن الحادى والعشرين.

(2) أبو العيناء هو محمد بن القاسم بن خلاّد بن ياسر الهاشمى، بالولاء، ويظن أنه ولد سنة 191هـ وكانت وفاته سنة 283هـ. وهو أديب فصيح، من ظرفاء العالم، ومن أسرع الناس جوابًا، وقد اشتهر بنوادره ولطائفه، وكان ذكيًّا جدًّا، حسن الشعر، مليح الكتابة والترسل، خبيث اللسان فى سب الناس والتعريض بهم. كفّ بصره بعد بلوغه أربعين سنة من عمره، وأصله من اليمامة، ومولده بالأهواز، ومنشأه ووفاته فى البصرة. انظر: خير الدين الزركلى: الأعلام. قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين. بيروت، دار العلم للملايين، ط15، أيار، مايو، 2002م، 334/6.

(3) صاعد بن مَخْلَد هو وزير من أهل بغداد، كان نصرانيًّا وأسلم على يد الموفق العباسى، واستكتبه الموفق سنة 265هـ، ووجهه فى المهمات، ولقب بذى الوزارتين، قال الشابشتى: كان من رجالات الناس حزمًا وضبطًا وكفاية وكرمًا ونبلاً، كثير الصدقات والصلوات ليلاً ونهارًا، وقد غضب عليه الموفق لوحشة وقعت بينهما، وسجنه، وكانت وفاته سنة 276هـ، انظر: الأعلام، 187/3.

قلت: إلى أبى العلاء ذى الوزارتين. قالت: أيعطيك؟ قلت: لا. قالت: أيشفعك؟ قلت: لا. قالت: أفيرفع مجلسك؟ قلت: لا. فقالت: يا أبه، ﴿ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴾"[1].

المرأة الناضجة

أما المرأة الناضجة، فالنوادر التى تتناولها كثيرة – كما قلنا من قبل للأسباب السابقة الذكر – وفيها تمثل المرأة حضورًا قويًّا، وتتعدَّد نماذجها – التى سنتحدث عنها فيما بعد – ويكون لها دور مؤثر وفعال فى الكثير من هذه النوادر، بل إنها فى بعض النوادر تنفرد بوجودها فيها.

ويلاحظ أن الأم والزوجة هما أكثر النساء حضورًا فى النوادر المذكور فيها المرأة، فعلاقة الرجل بزوجته وبأمه علاقة مؤثرة؛ ولهذا تعرض النادرة – كثيرًا – لأبعاد هذه العلاقة.

ومع أن الغالبية العظمى من النوادر تسلط الضوء على الرجل وعالمه، فإن هناك بعض النوادر تتناول عالم المرأة، وتعرض رؤيتها لبعض الأمور والأشياء، بل تعرض أحيانًا نظرتها للرجل[2].

ولكن أغلب النوادر التى تناولت المرأة الناضجة – وبخاصة الزوجة والأم – تحدثت عن علاقتها بالرجل، والمصادمات التى يمكن أن تقع بينها وبينه.

---

(1) من سور مريم: الآية 42، وانظر: النادرة فى: الآبى: نثر الدر. تحقيق: محمد على قرنة. مراجعة: على محمد البجاوى. الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1983م، 199/3.

(2) سنتحدث عن هذا الأمر بالتفصيل خلال دراستنا للدلالات الاجتماعية للنادرة.

الأم

ونتناول الآن بعض النوادر التى جاء فيها ذكر الأم، وأحيانًا تتواجد الأم بشكل قوى فى النادرة وتشارك فى الحدث والحوار بها، وأحيانًا يتم الحديث عنها داخل النادرة بضمير الغائب، ولا نرى لها وجودًا فى المنظر الذى تعرضه.

وها هى ذى نادرة نرى فيها الأم حاضرة فيها، ولكنها مع ذلك لا تشارك فى الحوار بها، بل يقوم بذلك ابنها الأعرابى الذى تسلط عليه النادرة الضوء وتتم الفكاهة فيها من خلال تصرفه الغريب ومن خلال تعليقه.

قال بعضهم: "رأيت أعرابيًّا يضرب أمه فقلت له: يا هذا أتضرب أمك؟ فقال: اسكت فإنى أريد أن تنشأ على أدبى"[1].

وها هى ذى نادرة أخرى يتم الحديث فيها عن الأم بضمير الغائب، ولا تمثل حضورًا بجسدها فيها.

"وسمعت بعضهم يدعو ويقول: اللهم اغفر لأمى ولأختى ولامرأتى. فقلت له: كيف تركت ذكر أبيك؟ قال: لأنه مات وأنا صبى لم أدركه ولم أعرفه"[2].

وها هى ذى نادرة يتم الحديث فيها – أيضًا – عن الأم بضمير الغائب، ومع ذلك فيبدو لنا فيها بعض ملامح من شخصيتها، فهى

---

(1) ابن الجوزى: أخبار الحمقى والمغفلين. تحقيق: د. أحمد أحمد شتيوى. القاهرة، دار الغد الجديد، ط1، 1427هـ/ 2006م، ص101.

(2) نثر الدر. تحقيق: منيرة محمد المدنى. مراجعة: د. حسين نصار. الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990م، 375/7.

– فيما يبدو – مثل ابنها بخيلة، وتعرف أنه لا يمكن أن يعطى البخيل أحدًا شيئًا إلا وله مقابل يأخذه حتى ولو كان هذا الأحد هو أمه، كما تبين ذلك هذه النادرة.

وروى أن أحدهم "جاءت جارية أمه، ومعها كوز فارغ، فقالت: قالت أمك: بلغنى أن عندك مزملة، ويومنا يوم حار، فابعث إلىَّ بشربة منها فى هذا الكوز.

قال: كذبتِ أمى أعقل من أن تبعث بكوز فارغ ونرده ملآن. اذهبى فاملئيه من ماء حُبِّكم، وفرغيه فى حبنا، ثم املئيه من ماء مزملتنا حتى يكون شىء بشىء"[1].

وهناك نوادر قليله فيها حضور قوى للأم وتشارك فى أحداثها – أو حدثها بمعنى أصح – ومع ذلك يكون تسليط الضوء الأقوى فيها على ابنها الرجل، كما نرى فى هذه النادرة عن جحا[2] وأمه.

---

(1) الجاحظ: البخلاء. تحقيق: د. طه الحاجرى. القاهرة، دار المعارف، ط7، 1990م، ص113، وانظر أيضًا: نثر الدر، 281/3.

(2) جاء عن جحا فى كتاب الأعلام: جحا الكوفى الفزارى، أبو الغصن: صاحب النوادر. يضرب به المثل فى الحمق والغفلة. كانت أمه خادمة لأم "أنس بن مالك" ويقال: كان فى الكوفة إبان ثورة أبى مسلم الخراسانى، وأدخله عليه مولاه يقطين فقال: يا يقطين أيكما أبو مسلم؟ وعلى هامش مخطوطتى من "المستقصى" للزمخشرى: وفيه يقول عمر بن أبى ربيعة:

"دَلَّهْتِ عقلى، وتلعبت بى

حتى كأنى من جنونى جحا"

فإن صحت نسبة البيت إلى ابن أبى ربيعة دلت على اشتهار جحا قبل أيام أبى مسلم بأكثر من أربعين سنة. وسماه الجوهرى فى الصحاح "جحا" فتعقبه صاحب القاموس بأن "جحا" لقبه وأن اسمه "دجين بن ثابت" وأورد ابن حجر فى "لسان الميزان" ترجمة لمحدث من أهل البصرة اسمه "دجين بن ثابت اليربوعى" وكنيته "أبو الغصن" ونفى رواية من قال إنه هو جحا. وقال شارل بلا: إن الجاحظ كان أول مؤلف عربى ذكر جحا فى مؤلفاته، ذكره فى رسالة=

"وذهبت أمه فى عرس، وتركته فى البيت، وقالت له: احفظ الباب. فجلس إلى الظهر. فلما أبطأت عليه قام، فقلع الباب، وحمله على عاتقه"[1].

وها هى ذى نادرة من نوادر قليلة نجد فيها للمرأة – الأم – دورًا مؤثرًا، لا يقل عن دور الرجل فيها، وهى بشخصيتها الطماعة، تثير الفكاهة شأنها شأن ابنها أشعب[2] المشهور بالطمع.

=عن علىّ والحكمين، وذكره فى كتاب البغال. وفى فهرست "ابن النديم" من الكتب المصنفة فى أخبار المغفلين "نوادر جحا" وهذا حتمًا غير كتاب "نوادر جحا" المطبوع بمصر وبيروت المترجم عن التركية، المنسوبة أخباره إلى جحا الرومى المعروف بخوجه نصر الدين، وقد دخلت فيه حكايات من نوادر جحا (العربى) فى جملة ما ترجم إلى التركية من كتب العرب. قال الزمخشرى: والحكايات عنه لا تضبط كثرة. وفى ديوان أبى العتاهية (المتوفى سنة 211) قوله:

دلهنى حبها وصيرنى ♦♦ مثل جحا شهرة ومَشْخَلَهْ

وفى مخطوطة حديثة سميت "قطعة من تراجم أعيان الدنيا الحسان" فى المكتبة الشرقية اليسوعية ببيروت: كان أبو الغصن جحا البغدادى صاحب مداعبة ومزاح ونوادر توفى فى خلافة المهدى العباسى".

انظر: الأعلام، 2/112- 113.

وقد ذكر د.محمد رجب النجار: أن جحا شخصية حقيقية، وأن كنيته كانت أبا الغصن، وأنه توفى سنة 160هـ، انظر: د. محمد رجب النجار: جحا العربى. الكويت. سلسلة عالم المعرفة، العدد (10)، أكتوبر، 1978م، ص22- 24، ويراجع الكتاب كله.

وفى رأيى أن جحا كان بالفعل شخصية حقيقية، ولكنه كان أحمق أو يدَّعى التحامق؛ لأن أقدم ما وصلنا من نوادره فى الكتب القديمة يشير لحمقه ومن ذلك ما جاء من نوادر عنه فى كتاب نثر الدر للآبى: تحقيق: محمد إبراهيم عبد الرحمن. مراجعة: على محمد البجاوى. الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1987م، 5/307- 313، وكتاب ابن الجوزى، أخبار الحمقى والمغفلين، ص33- 39.

(1) نثر الدر، 5/309.

(2) هو أشعب بن جبير المشهور بالطامع، ويقال له ابن أم حُميدة، ويكنى أبا العلاء وأبا القاسم، وهو ظريف من أهل المدينة، وكان مولى لعبد الله بن الزبير، وتأدب وروى الحديث، =

"قال أشعب تعلقت بأستار الكعبة فقلت: اللهم أذهب عنى الحرص والطلب إلى الناس، فمررت بالقرشيين وغيرهم فلم يعطنى أحد شيئًا، فجئت إلى أمى فقالت: ما لك جئت خائبًا؟ فأخبرتها، فقالت: لا والله لا تدخل حتى ترجع فتسقيل ربك.

فرجعت فقلت: يا رب أقلنى، ثم رجعت، فلم أمر بمجلس لقريش وغيرهم إلا أعطونى ووهب لى غلام، فجئت إلى أمى بحمار موقر من كل شىء، فقالت: ما هذا الغلام؟ فخفت أن أخبرها بالقصة فتموت فرحًا، فقلتُ: وهبوا لى، قالت: أى شىء؟ قلت: غين، قالت: وأى شىء غين؟ قلت: لام، قالت: وأى شىء لام؟ قلت: ألف، قالت: وأى شىء ألف؟ قلت: ميم، قالت: وأى شىء ميم؟ قلت: غلام. فغشى عليها، ولو لم أقطّع الحروف لماتت الفاسقة فرحًا"[1].

وللمضحكين كججا ومُزَبِّد[2] علاقات طريفة بأمهاتهم، وزوجاتهم، وكثيرًا ما تتم مفارقات مضحكة لهؤلاء المضحكين مع

=وكان يجيد الغناء، ويضرب المثل بطمعه. وأخباره كثيرة متفرقة فى كتب الأدب، وقد عاش عمرًا طويلاً، وقيل إنه أدرك زمن عثمان بن عفان ﷺ، وسكن المدينة فى أيامه، وقدم بغداد فى أيام أبى جعفر المنصور العباسى، وتوفى بالمدينة سنة 154هـ. انظر: الأعلام، 332/1، والأصفهانى: الأغانى. تحقيق: عبد الكريم إبراهيم العزباوى. إشراف: محمد أبو الفضل إبراهيم. الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1993م، 135/19- 136.

(1) الأصفهانى: الأغانى، 139/19، وانظر أيضًا: ابن عبد ربه: العقد الفريد. تحقيق: د. عبد المجيد الترحينى. بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1404هـ/1983م، 135/8- 136، والنويرى: نهاية الأرب فى فنون الأدب. مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، 1343هـ/ 1925م، 28/4.

(2) هو أبو إسحاق مزبِّد، وكانت نشأته فى المدينة، ثم بعد ذلك انتقل إلى العراق، وكان معاصرًا للخليفة المهدى كما يفهم من بعض أخباره، وله نوادر وحكايات طريفة كثيرة، وكان يضرب المثل بظرفه ونوادره. انظر عنه: ابن الجوزى: أخبار الظراف والمتماجنين. بعناية:=

أمهاتهم وزوجاتهم، فهذا جحا يتحدث عن أمه بعد موتها بشكل مضحك مما يدل على حمقه فى تلك النادرة.

"وماتت أمه فجعل يبكى، ويقول: رحمك الله فلقد كان بابك مفتوحًا ومتاعك مبذولاً"[1].

الزوجة

وأكثر النوادر – المذكور فيها المرأة الحرة – تتحدث عن الزوجة، وتذكر مواقف كثيرة لها فى علاقتها مع زوجها، والخلافات التى تحدث بينها وبينه، مع ملاحظة أن هذه النوادر التى تتناول الزوجة تتحدث عنها – فى الغالب – من وجهة نظر الزوج، ويتم تسليط الضوء عليه فيها بشكل أكبر منها، ويكون هو – فى الغالب – مصدر الضحك فى هذه النوادر، كما نرى فى هاتين النادرتين.

وقال بعضهم: "قلت لأبى عيينة: قد أحسن الذى سأل امرأته عن اللحم، فقالت أكله السِّنَّوْرُ[2].

فوزن السنور، ثم قال: هذا اللحم فأين السنور؟"[3].

* * *

=بسَّام عبد الوهاب الجابى. بيروت، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1418هـ/ 1997م، ص104، ومعجم الأدباء، 2113/5، ونهاية الأرب، 24/4- 25.

(1) نثر الدر، 311/5.

(2) السنور: القط.

(3) البخلاء للجاحظ، ص145.

قالت امرأة مدنية لزوجها: "اشتر لى رطبًا. قال لها: وكيف يباع الرطب؟ قالت: كيلجة[1] بدرهم. فقال: والله لو خرج الدجال وأنت تمخضين[2] بعينى ما ينتظر إلا أن تلديه، فيقتل الدجال، ثم لم تلديه حتى تأكلى رطبًا ما اشتريته لك كيلجة بدرهم"[3].

وتعرضت النادرة للزوجة الحامل، ومع ذلك يكون الحديث عنها – فى الغالب – من خلال نظرة الرجل، كما نرى فى هاتين النادرتين.

قال أحدهم: "نزلنا دارًا للكِنْدِىّ[4] أكثر من سنة، نروّج له الكراء[5] ونقضى له الحوائج، ونفى له بالشرط، قلت: قد فهمتُ ترويج الكراء وقضاء الحوائج. فما معنى الوفاء بالشرط؟ قال: فى شرطه على السكّان أن يكون له روث الدابة[6]، وبَعْر الشاة ونشوار العلوفة[7]، وألا يلقوا عظمًا، ولا يخرجوا كُساحة. وأن يكون له نوى التمر، وقشور

---

(1) كيلجة: مكيال معروف عند أهل العراق.

(2) تمخضين: تأتيك آلام الولادة.

(3) الخطيب البغدادى: البخلاء. حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم. مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع والتصدير، 1990م، ص84.

(4) رأى الدكتور طه الحاجرى أن الكندى المذكور فى كتاب البخلاء للجاحظ هو شخص مختلف عن الكندى الفيلسوف، وأتى ببعض الأدلة الترجيحية حول ذلك. انظر: تعليقات الدكتور الحاجرى على كتاب البخلاء للجاحظ، ص253- 254.

وفى بحث لى بعنوان: "رسالة الكندى وأخباره فى كتاب البخلاء للجاحظ توثيق وتحليل". توصلت إلى أن الكندى المذكور فى كتاب البخلاء للجاحظ هو نفسه الكندى الفيلسوف، بدلائل وحجج تسند رأيى هذا.

انظر: د. على محمد السيد خليفة: دراسات فى فنون النثر العربى القديم. الإسكندرية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، ط1، 2013م، ص81- 132.

(5) الكراء: الإيجار.

(6) روث الدابة: مخلفاتها.

(7) نشوار العلوفة: ما يتبقى من علف الدابة.

الرمان، والغَرْفة من كل قدر تطبخ للحبلى فى بيته. وكان فى ذلك يتنزل عليهم فكانوا لطيبه وإفراط بخله وحسن حديثه يحتملون ذلك"[1].

* * *

و"كان الكندى لا يزال يقول للساكن، وربما قال للجار: إن فى الدار امرأة بها حمل، والوحمى[2] ربما أسقطت من ريح القدر الطيبة، فإذا طبختم فردوا شهوتها ولو بغرفة أو لعقة، فإن النفس يردها اليسير. فإن لم تفعل ذلك بعد إعلامى إياك، فكفارتك إن أسقطت غرة: عبد أو أمة، ألزمت ذلك نفسك أم أبيت.

فكان ربما يوافى إلى منزله من قصاع السكان والجيران ما يكفيه الأيام وكان أكثرهم يفطن ويتغافل. وكان الكندى يقول لعياله: أنتم أحسن حالاً من أرباب هذه الضياع. إنما لكل بيت منهم لون واحد وعندكم ألوان"[3].

وهناك نوادر قليلة تُمثّل المرأة الحامل حضورًا قويًّا فيها – إلى حد ما – كما نرى فى هذه النادرة عن جحا وزوجته.

"كانت زوجته حاملاً، فلما أوشكت على الوضع تعسرت ولادتها فقالت له النسوة: ادع اللّه أن يسهل ولادتها.

فخرج مسرعًا إلى السوق ثم عاد ومعه بعض الحلوى ووضعه بجوار امرأته، فقالت النساء له: ما هذا يا جحا؟ فقال: أنا أعرف أن

---

(1) البخلاء للجاحظ، ص82.

(2) الوحمى: المرأة الحامل.

(3) المصدر السابق، ص81.

الأطفال يحبون الحلوى؛ ولذا جئت بحلوى ليراها المولود فيخرج مسرعًا من بطن أمه"[1].

وأيضًا تعرضت بعض النوادر للمرأة بعد إنجابها، ويكون تسليط الضوء – فى الغالب أيضًا – فى مثل هذه النوادر على الرجل الزوج، فى حين يتم الحديث عن المرأة المنجبة بشكل هامشى، كما نرى فى هذه النادرة.

"ولد لرجل ابن فى غيبته، فكتبت إليه امرأته تبشره بالمولود. فكتب إليها: بلغنى أنك ولدت ابنًا فأحسن الله جزاءك، وأعان على مكافأتك، وقد سميته محمد بن عبد الله ﷺ"[2].

الابنــة

والابنة – كذلك – غالبًا ما يتم الحديث عنها بضمير الغائب، ولم تمثل بجسدها فى النادرة إلا قليلاً.

وها هما نادرتان يتم الحديث فيهما عن الابنة فى غيابها.

"قال بعضهم: رأيت بالشام قاصًّا روى فى مجلسه أن أبا هريرة رأى على ابنته خاتم ذهب، فقال لابنته: لا تختمى بالذهب فإنه لهب.

فبينا هو يحدثهم ويقص عليهم إذ بدت يده وفى إصبعه خاتم ذهب، فقالوا: يا عدو الله؛ تنهى عن شىءٍ وتلبسه أنت؟ ووثبوا عليه.

---

(1) عبد الستار أحمد فراج: أخبار جحا. مكتبة مصر، دار مصر للطباعة، ط3، ص135.

(2) أخبار الحمقى والمغفلين، ص146.

فقال: يا قوم لست أنا ابنة أبى هريرة. إنما حرم ذلك على تلك المشئومة"[1].

* * *

وماتت ابنة لجحا "فذهب ليشترى لها كفنًا فلما بلغ البزازين[2] رجع مسرعًا. فقال: لا تحملوها حتى أجىء أنا"[3].

وحين حضور الابنة الناضجة فى النادرة، تُرى – فى الغالب – داخل دار أبيها، ويحرم النظر عليها لغير المحارم، كما نرى فى هذه النادرة عن أشعب.

"خرج سالم بن عبد الله متنزهًا إلى ناحية من نواحى المدينة هو وحرمه وجواريه وأبلغ أشعب الخبر فوافى الموضع الذى هم به، يريد التطفيل.

فصادف الباب مغلقًا فتسور الحائط، فقال له سالم: ويلك يا أشعب معى بناتى وحرمى، فقال: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾[4]، فوجه إليه سالم من الطعام ما أكل وحمل إلى منزله"[5].

---

(1) نثر الدر. تحقيق: محمد على قرنة. مراجعة: د. حسين نصار. الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1985م، 4/285- 286.

(2) البزازون: بائعو الثياب.

(3) نثر الدر، 5/312.

(4) سورة هود، الآية 79.

(5) الخطيب البغدادى: التطفيل وحكايات الطفيليين وأخبارهم ونوادر كلامهم وأشعارهم. القاهرة، مكتبة القدس، ط2، 1983م، ص47، وانظر أيضًا: جمع الجواهر، ص68، والأغانى، 19/165، ونثر الدر، 5/315.

وينسب الموقف السابق نفسه لبنان المشهور بالطمع والطفيلية كأشعب.

"وجاء بنان[1] إلى وليمة، فأغلق الباب دونه، فاكترى سلمًا ووضعه على حائط للرجل، فأشرف على عيال الرجل وبناته، فقال له الرجل: يا هذا أما تخاف الله رأيت أهلى وبناتى؟

فقال: يا شيخ، لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق، وإنك لتعلم ما نريد. فضحك الرجل وقال له: انزل فكل"[2].

وحتى حين طلب أحدهم خطبة "الابنة الناضجة" لا تستشار فى ذلك، وإنما يكون الأمر بيد أبيها أو أمها، ولا يكون لها – فى الغالب – دور فى هذا الأمر، ويتم الحديث عنها عرضًا، وكأن الأمر لا يعنيها كما نرى فى هذه النادرة.

قال أبو الحسن المدائنى: "خطب رجل من بنى كلاب امرأة، فقالت أمها: دعنى حتى أسأل عنك. فانصرف الرجل فسأل عن أكرم الحى عليها؛ فدل على شيخ منهم كان يحسن التوسط فى الأمر، فأتاه يسأله أن يحسن عليه الثناء، وانتسب له فعرفه؛ ثم إن العجوز غدت عليه

---

(1) اختلف فى اسم بنان، فقيل: إن اسمه هو على بن محمد بن عثمان، وقيل: عبد الله بن عثمان، وبنان لقب له، وكنيته أبو الحسن، وهو من أصول مروزية، وعاش فى بغداد فترة من حياته وهو مشهور بالتطفيل، وله نوادر عديدة فى ذلك، بل لعله أشهر متطفل تنسب له نوادر فى التطفيل، وله بعض أخبار مع وكيع بن الجراح المتوفى سنة 197هـ. انظر عن بنان: الخطيب البغدادى: التطفيل، ص64، وشهاب الدين أحمد بن العماد الشافعى: القول النبيل بذكر التطفيل. دراسة وتحقيق: مصطفى عاشور. الرياض، مكتبة الساعى، 1989م،ص133-134.

(2) ابن الجوزى: الأذكياء. بيروت، دار الكتب العلمية، د.ت، ص204، وانظر أيضًا: القول النبيل بذكر التطفيل، ص94، والتطفيل، ص46.

فسألته عن الرجل، فقال: أنا أعرف الناس به. قالت: فكيف لسانه؟ قال: مِدْرَهُ[1] قومه وخطيبهم! قالت: فكيف شجاعته؟ قال: منيع الجار حامى الذمار! قالت: فكيف سماحته؟ قال: ثِمال[2] قومه وربيعهم! وأقبل الفتى، فقال الشيخ: ما أحسن والله ما أقبل! ما انثنى ولا انحنى. ودنا الفتى فسلم، فقال: ما أحسن والله ما سلم! ما جأر ولا خار. ثم جلس، فقال: ما أحسن والله ما جلس! ما دنا ولا نأى. وذهب الفتى ليتحرك فضرط، فقال الشيخ: ما أحسن والله ما ضرط! ما أطنها ولا أغنها، ولا بربرها ولا قرقرها. ونهض الفتى خجلاً، فقال: ما أحسن والله ما نهض! ما انفتل ولا انخزل. وأسرع الفتى، فقال: ما أحسن والله ما خطا! ما ازور ولا اقطوطى[3] فقالت العجوز: حسبك يا هذا! وجه إليه من يرده، فوالله لو سلح فى ثيابه لزوجناه!"[4].

القريبات الأخريات

وتناولت بعض النوادر أقارب الرجل، والمرأة من النساء، خاصة أقارب الرجل من النساء؛ لأن النادرة بشكل عام تركز على الرجل، وقلما تركز على المرأة بشكل خاص.

والنوادر التى ذُكر فيها أقارب الرجل من النساء، كان الحديث عنهنّ فيها – فى الغالب – بضمير الغائب، ولم يكن يحضرن بأجسادهن فى منظر – أو مناظر – النادرة إلا قليلاً.

---

(1) المدره: السيد الشريف، وزعيم القوم وخطيبهم المتكلم عنهم، والمحامى.

(2) الثمال: الملجأ والغياث.

(3) اقطوطى: قارب فى خطوه.

(4) العقد الفريد، 8/142- 143.

ويتم الحديث عن قريبات الرجل من النساء أو قريبات زوجته، من خلال نظرة الرجل – فى الغالب – الذى يتم تركيز الضوء عليه فى النادرة، كهذه النادرة.

"وماتت بنت عم للمنصور، فحضر جنازتها، وجلس لدفنها، وأقبل أبو دلامة الشاعر، فقال له المنصور: ويحك! ما أعددت لهذا اليوم؟ فقال: يا أمير المؤمنين، ابنة عمك هذه التى واريتها قبيل!

فضحك المنصور حتى استُغْرب"[1].

وهذه النادرة عن جحا يتحدث فيها عن خالته بعد موتها.

"وماتت خالته، فقالوا: اذهب، واشتر لها حنوطًا[2]. فقال: أخشى ألا ألحق الجنازة"[3].

وشخصية الحماة للزوج أو للزوجة نموذج معروف فى الكوميديا فى العصر الحديث، ووظفته السينما المصرية كثيرًا، وكذلك ظهرت فى مسرحيات عديدة – بخاصة فى مسرحيات نجيب الريحانى وبديع خيرى، ومسرحيات إسماعيل يس وأبى السعود الإبيارى – وهى تكاد تكون بصفاتها التى ظهرت بها فى الأفلام والمسرحيات – بخاصة القديمة – نموذجًا محليًّا، قلما نجد مثيلاً وشبيهًا له فى الأدب العالمى والسينما العالمية.

---

(1) استغرب فى الضحك: أكثر منه، والنادرة فى: المبرد: الكامل. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. دار الفكر العربى، د.ت، 117/1، وانظر أيضًا: أخبار الظراف والمتماجنين، ص118، وجمع الجواهر، ص114.

(2) الحنوط: طيب يخلط للمتوفّى.

(3) نثر الدر، 309/5.

وفى نوادر قليلة نجد شخصية الحماة المشاكسة لزوج ابنتها، ولا شك أنها شبيهة جدًّا بالحماة التى نراها فى المسرحيات والأفلام سابقة الذكر.

وها هى ذى نادرة فيها شخصية الحماة تلك.

"وقال أبو القاسم عبيد الله بن عمر البقال: تزوج شيخنا أبو عبد الله بن المُحْرَم، وقال لى: لما حُملت إلى المرأة جلست فى بعض الأيام أكتب شيئًا على العادة، والمحبرة بين يدى. فجاءت أمها، فأخذت المحبرة، فضربت بها الأرض، فكسرتها، فقلت لها فى ذلك، فقالت: هذه شرّ على ابنتى من ثلاث مائة ضرة"[1].

وخارج إطار العلاقات العائلية أحيانًا يدور حوار بين نساء ورجال أغراب عنهن، ويتم هذا فى مكان مفتوح؛ أى فى شوارع أو فى أسواق، وغالبًا ما يكون هؤلاء النساء من الجوارى اللائى قد يخرجن من البيوت لقضاء بعض الحاجات لسادتهنّ.

ومع ذلك هناك نوادر قليلة تظهر فيها المرأة الحرة فى مكان مفتوح، ويتعرض لها رجل غريب عنها، ويدور بينهما موقف مضحك كهذه النادرة عن أشعب وامرأة لا يعرفها.

وتبع أشعب "مرة امرأة فقالت له: وما تصنع بى ولى زوج؟ قال: فَتَسَرِّى بى، فديتك"[2].

---

(1) أخبار الظراف والمتماجنين، ص141.

(2) نثر الدر، 318/5.

ولعل فى النادرة السابقة إشارة خفية فى أن المرأة الحرة لو خرجت من بيتها، فهذا يعرضها للمضايقات الكثيرة من الرجال الغرباء؛ ولهذا أحرى بها ألا تخرج من بيت أبيها أو زوجها إلا مع محرم، ولضرورة.

ولعل النادرة السابقة تشير لهذا الوضع الذى كان للمرأة الحرة فى العصر العباسى بشكل خاص.

المرأة العجوز

وكما تعرضت النادرة للطفلة وللمرأة الناضجة فقد تعرضت أيضًا للمرأة العجوز، وتظهر العجوز فى هذه النوادر – فى الغالب – بجسدها، وتشارك فى أحداث النادرة، بل إنها تكون – فى الغالب – الشخص الرئيس فيها، ومصدر الفكاهة بها، ولعل ظهورها القوى فى النوادر التى ذكرت فيها، يعود لكون المجتمع العربى – فى العصور القديمة – لم يكن يجد حرجًا فى خروج العجوز للشوارع والأسواق، فلا أحد سينظر إليها بشهوة.

وهذه العجوز فى النوادر التى ذكرت بها غالبًا ما تلقى بنقدها على الأشخاص الذين لا تستحسن تصرفاتهم كما نرى فى هاتين النادرتين.

"قالت عجوز لزوجها: أما تستحى أن تزنى ولك حلال طيب؟ قال: أما حلال فنعم، وأما طيب فلا"[1].

* * *

(1) أبو حيان التوحيدى: البصائر والذخائر. تحقيق: د. وداد القاضى. بيروت، دار صادر، ط1، 1408هـ/ 1988م، 134/2، وانظر أيضًا: الزمخشرى: ربيع الأبرار ونصوص الأخبار. تحقيق: عبد الأمير مهنا. بيروت، منشورات مؤسسة الأعلمى للمطبوعات، ط1، 1412هـ/1992م، 53/2.

ورُوى "أن عجوزًا من الأعراب جلست فى طريق مكة إلى فتيانٍ يشربون نبيذًا لهم، فسقوها قدحًا فطابت نفسها، وتبسمت؛ ثم سقوها قدحًا آخر فاحمر وجهها وضحكت، فسقوها قدحًا ثالثًا فقالت: خبرونى عن نسائكم بالعراق، أيشربن من هذا الشراب؟ فقالوا: نعم. فقالت: زنين ورب الكعبة"[1].

وأحيانًا تأتى المرأة العجوز بتصرفات غريبة مضحكة، أو تقول كلامًا طريفًا يستدعى الضحك، كما نرى فى هذه النوادر.

رُوى أن عجوزًا سندية ركبت "جملاً، فلما مضى تحتها متخلعًا اعتراها كهيئة حركة الجماع، فقالت: هذا الذمل يذكرنا بالسر. تريد أنه يذكرها بالوطء، فقلبت الشين سينًا والجيم ذالاً. وهذا كثير"[2].

* * *

"وكانت لعيسى بن علىٍّ مولاة عجوز خراسانية تصرخ بالليل من ضربان ضرس لها، فكانت قد أرقت الأمير إسحاق، فقلت له: إنها مع ذلك لا تدع أكل التمر! قال: فبعث إليها بالغداة فقال لها: أتأكلين التمر بالنهار وتصيحين بالليل؟ فقالت: إذا اشتهيت أكلت وإذا أوجعنى صحت!"[3].

* * *

(1) الجاحظ: الحيوان. تحقيق: عبد السلام محمد هارون. شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر، ط2، 1382هـ/ 1965م، 292/3- 293، وانظر أيضًا: الأبشيهى: المستطرف فى كل فن مستظرف. شرحه ووضع هوامشه: د. مفيد محمد قميحة. بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1413هـ/1993م، ص532.

(2) الجاحظ: البيان والتبيين. تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون. مكتبة الخانجى بالقاهرة. مطبعة المدنى، ط7، 1418هـ/ 1998م، 74/1، وانظر أيضًا: الحيوان، 292/3.

(3) الحيوان، 31/3.

"صارت عجوز إلى قوم تعزيهم عن ميتٍ. فرأت عندهم عليلاً. فلما أرادت أن تقوم قالت: الحركة تغلظ علىّ فى كل وقت. فأعظم الله أجركم فى هذا العليل فلعله يموت"[1].

وكانت هناك فى العصر العباسى مجالس للنساء العجائز، لا يمنعهن أحد منها، فلا يخشى عليهن من أن ينظر إليهن أحد بشهوة فى هذه المجالس، ومن هذه المجالس مجالس العزاء، وفيها يتم الحديث بينهن فى أمور اجتماعية تخص عصرهن، كما نرى فى هذه النادرة التى صوّر لنا الجاحظ فيها بعدسته الساخرة اجتماع عدد من النساء العجائز فى مجلس عزاء.

"وحكت امرأة تعرف الأمور، قالت: كان فى الحى مأتم اجتمع فيه عجائز من عجائز الحى. فلما رأين أن أهل المأتم قد أقمن المناحة، اعتزلن وتحدثن. فبينا هن فى حديثهن، إذ ذكرن بر الأبناء بالأمهات، وإنفاقهم عليهن. وذكرت كل واحدة منهن ما يوليها ابنها. فقالت واحدة منهن، وأم فيلويه ساكتة، وكانت امرأة صالحة، وابنها يظهر النسك ويدين بالبخل، وله حانوت فى مقبرة بنى حصن يبيع فيها الأسقاط.

قالت: فأقبلت على أم فيلويه، قالت لها: ما لك لا تحدثين معنا عن ابنك. كما يتحدثن؟ وكيف صنع فيلويه فيما بينك وبينه؟ قالت: كان يجرى علىّ فى كل أضحى درهمًا. ثم قالت: وقد قطعه أيضًا.

فقالت لها المرأة: وما كان يجرى عليك إلا درهمًا؟ قالت: ما كان يجرى علىّ إلا ذاك، ولقد ربما أدخل أضحى فى أضحى.

---

(1) البصائر والذخائر، 104/4.

فقالت: فقلت: يا أم فيلويه وكيف يدخل أضحى فى أضحى؟ قد يقول الناس: إن فلانًا أدخل شهرًا فى شهر، ويومًا فى يوم، وأما أضحى فى أضحى، فهذا شىء لابنك لا يشركه فيه أحد"[1].

الحور العين

وتعرضت بعض النوادر لنوع من النساء لمَّا نره بعد، وإننا ندعو الله أن نراه، ألا وهو الحور العين، كما فى هذه النادرة.

"ونظر عمر بن الخطاب ﷺ إلى أعرابى قد صلى صلاة خفيفة. فلما قضاها قال: اللهم زوجنى بالحور العين، فقال عمر: يا هذا! أسأت النقد وأعظمت الخطبة"[2].

(1) البخلاء للجاحظ، ص144- 145.

(2) نهاية الأرب، 3/4.